التقابل بين ألفاظ الشعر الجاهلي وألفاظ القرآن: دراسة في وظائف الخطاب

ا.م.د. جاسم محمد حسين
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

The contrast between the vocabulary of Jahiliyya poetry and that of the Qur'an: A study in the functions of discourse

Asst. Prof. Dr. Jassim Mohammed Hussein
Ministry of Higher Education and Scientific Research

Abstract:
The doctrinal, intellectual and social shifts constitute a fundamental element in the change of concepts, the vision of life, and even its interpretation can be transformed by the change of the social system. In this research, we will seek to monitor a group of words that represent in the Jahiliyya a system of an entire life, as we find in (wine, facilitator, Ansab al-Azlam, Nassim), reflected in the discourse in the poetry These words, and many others, turned into a phenomenon that was rejected and even prohibited with the advent of Islam, and to form an Islamic discourse against them, placing them in the category of taboo, by characterizing them as sinful, immoral, and disbelieving.

Hence, we will seek to uncover the controversy of the contrasting vision between the two eras, in light of the functions of discourse emphasized by Jacobson and Halliday, and we will use them to uncover the functions of discourse that are mainly related to the elements of communication. We will use them to reveal the functions of discourse, which are mainly related to the elements of communication, in the Jahiliyya poetic discourse and in the Holy Qur'an

Keywords: study, functions, discourse, contrast

الملخص :-

تشكل التحولات العقدية والفكرية والاجتماعية عنصراً جوهريا في تغير المفاهيم، والرؤية إلى الحياة، بل وحتى تفسيرها قابل للتحول بتغير النظام الاجتماعي، وسنسعى في هذا البحث إلى رصد مجموعة من الألفاظ التي تمثل في الجاهلية منظومة لحياة بأكملها، على نحو ما نجده في (الخمر، الميسر، الانصاب الأزلام، النسيء)،انعكست على الخطاب في الشعر الجاهلي بدلالات مخصوصة تجسد عقيدة الإنسان العربي في الجاهلية، بما يرتبط بها من سلوك فردي وجماعي، كان معمولا به، بل ويعد من متع الحياة التي لا غنى عنها، هذه الألفاظ وغيرها كثير تحولت إلى

ظاهرة مرفوضة، بل وطالها التحريم بمجيء الإسلام، وليتشكل في مواجهتها خطاب إسلامي، وضعها في خانة المحرمات، من خلال توصيفها بالإثم والفسق والكفر .

من هنا سنسعى إلى الكشف عن جدل الرؤية التقابلية بين العصرين، في ضوء وظائف الخطاب التي أكد عليها جاكبسون ومن بعده هاليداي، وسنستعين بها للكشف عن وظائف الخطاب التي ترتبط في الأساس بعناصر التواصل. متلمسين آثارها في الخطاب الشعري الجاهلي، وفي القرآن الكريم .

الكلمات المفتاحية: التقابل، الشعر الجاهلي، ألفاظ القرآن، وظائف الخطاب

التقابل في اللغة :-

التقابل من (قَبَلَ) "الْقَافُ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَيَتَفَرَّعُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْقُبُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلَافُ دُبُرِهِ"[١]. جاء في اللسان المقابلة والتقابل المواجهة[٢]

التقابل في الاصطلاح :-

مفهوم التقابل :-

لابد في هذا المقام من تفسير لمفهوم التقابل الذي يعنينا في هذا البحث، إذ تنطلق فكرة التقابل من رؤية الانسان للأشياء، ولا سيما حين يحدث انقلاب فكري في مجتمع ما، فتتغير بفعله الرؤى، وتتغير وظائف الخطاب تجاه الأمر نفسه، عندما تتصارع فيه وحوله. ويمكن أن نطلق عليه تقابل أيدولوجي، فكل تقابل بين خطابين يدوران في موضوع واحد، هوتقابل فكري أيديولوجي؛ لأن السرديتين اللتين يعرضهما الخطابان هما سرديتان أيديولوجيتان متقابلتان بامتياز[٣]. وهذا التعارض يفضي إلى المواجهة، والتقابل لا يخرج في إطاره العام عن المواجهة التي تتم بين طرفين، يكون الأول منهما يواجه الثاني، ويتقابل معه، سواء أكان تقابل طاقتين، أم تقابل قوتين، وغير ذلك من التقابلات التي تتم بين الشيئين، وقد يتعدى أحيانا إلى معنى الطاقة ، أو إلى معنى المعارضة. ومنه يمكن القول إن مفهوم التقابل يتيح لنا أن ندرج تحته عددا من الدوال اللغوية التي يحيل معناها إلى المواجهة[٤].

والخطاب بمعناه العام هو أداة التواصل بين البشر، والعامل الأساسي في تشكيل بنيتهم الذهنية وتركيبتهم النفسية، وهو الوسيلة الأساسية لبلورة القناعات وصناعة المواقفوالاتجاهات والتحركات سواء على مستوى الافراد او الجماعات [٥].أمّا دور الزَّمان والمكان في تغيير الرؤية،أو تغيير كيفيّتها، أو نوعيّتها، فهذا أمر ليس مستغرباً؛ بل هو أمر مبرَّر، وله مقتضياته العقلانيَّة،

فقد تقتضيه حكمة التدرّج في التّشريع والتأديب، وهي حكمة تربويّة... سواء فيما يتّصل بتغيّر الحكم بين شريعةٍ وأخرى، ولا يخفى على المتأمّل أنَّ الأحكام تتبع موضوعاتها، وعناوينها، فبانتفائها ينتفي الحكم. من هنا إذا كان تغيّر الزَّمان وتبدّل المكان سبباً في تغيّر الموضوع المعهود، فلا إشكال حينئذٍ في تأثيره في تغيّر الحكم"، الذي يقترن على نحو مباشر بتغيّر الخطاب.

وظائف الخطاب :-

تنبه المنظرون اللسانيون إلى أهمية الخطاب انطلاقاً من كونه ركيزة أساسية تقوم عليها وظائف اللغة، ولقد كان جاكوبسون من أوائل الذين اهتموا بدراسة الخطاب بوصفه الوجه التواصليّ للغة، والخطاب بدوره يتشكل من ستة أركان، كما أثبتها جاكبسون وهي: المرسِل، والمتلقي والسياق المقامي للخطاب، ومضمون الرسالة، والاتصال الذي تنشئه الرسالة، والنظام اللغوي[٦].

"يلخص ياكبسون الوظائف التي تقوم بها اللغة في ست وظائف: الوظيفة المرجعية (أو الإحالية والوظيفة التعبيرية والوظيفة التأثيرية والوظيفةالشعرية والوظيفة اللغوية (بفتح اللام) والوظيفة الميتالغوية"[٧]، وكل وظيفة من هذه الوظائف ترتبط بعنصر من عناصر الخطاب التي أقر جاكبسون ضرورة توافرها في أي عملية تواصلية، ولا تجتمع هذه الوظائف في خطاب واحد، فنلمس حضور وظيفة أو أكثر.

يلاحظ هاليداي أن الأغراض التي يمكن أن تستعمل اللغة من أجل تحقيقها كثيرة، كما أنها تختلف باختلاف الشعائر الاجتماعية، والأنماط الثقافية، غير أن هذه الوظائف لا تهم جميعها دارسي اللغة. لهذا، يتحتم على المتصدي لدراسة الوظائف دراسة لغوية أن ينتقي من بين حشد الوظائف التيتستعمل اللغة من أجل تأديتها الوظائف المتوفرة فيها الخاصيتان الآتيتان: (أ) ورودها في اللغات الطبيعية جميعها، وعدم اختلافها من لغة إلى أخرى). (ب) أن تحدد بنية اللغة وانعكاسها في مستوى الخصائص الصورية للغة. ويرى هاليداي، أن الوظائفالتي تتوافرفيها هاتان الخاصيتان، وظائف ثلاث هي : الوظيفة التمثيلية(المرجعية)، والوظيفة التعالقية، والوظيفةالنصية [٨].

ولا ينبغي تحليل الخطاب من حيث مكوناته اللغوية فحسب، بل هو معني بالممارسات التي تحيط وتتحكم به، أي البحثفي توزيع الخطاب في الزمان أو المكان، والعلاقة الناشئة مع المتلقي، مع العناية بالأثر والدوافع، فخطاب ما، ربما يكون مستبعدا في رقعة جغرافية، في حين يكون مقبولاً ومرحباً به في رقعة أخرى، وكذا الحال على مستوى الزمان، قد يكون مقبولا في عصر ما ومرفوضاً في عصر آخر في الرقعة الجغرافية نفسهافالخطاب عبارة عن نسق منتج لمقولات متعددة، أو هو

عبارة عن شيء ينتج شيئا آخر، (ملفوظ، مفهوم، أثر)[٩]. وينتج أحياناً واقعاً جديداً، انطلاقاً من الأفكار التي يطرحها.

يحصرهاليداي وظائف اللغة في ثلاث: الوظيفة التمثيلية، والوظيفة التعالقية،والوظيفة النصية،فهي وظائف مستقلة. وبإمعان النظر في خصائص كل منهذه الوظائفيظهر أنها ترجع إلى وظيفة واحدة، هي وظيفة التواصل. فالتواصل العادي بين شخصين في موقف تواصلي معين يقتضي الإحالة على واقع خارجي، أو واقع داخلي مرتبط بذات أحد المتخاطبين الوظيفة التمثيلية. أما حينمايتخذ المخاطب دوراً من الأدوار الاجتماعية مثل دور المخبر ودور السائل ودور الآمر. الوظيفة التعالقية، وحين ينظم الخطاب بحسب مقتضيات مقام إنجازه تبرزالوظيفة النصية.وهذه الوظائف الثلاث تختزل كثيراً من الوظائف الخطابية[١٠].

التقابل بين الفاظ الشعر الجاهلي والقرآن الكريم :-

الخمر والمَيْسِر

١-الخمر

الخمر من (خَمَر) و"أصل الخمر: ستر الشيء، ويقال لما يستر به... والخَمْر سمّيت لكونها خامرة لمقرّ العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكلّ مسكر. وعند بعضهم اسم للمتخذ من العنب والتمر، لما روي عنه صلّى الله عليه وسلم: «الخمر من هاتين الشّجرتين: النّخلة والعنبة"[١١].

من الظواهر التي تماهت مع حياة الانسان العربي قبل الإسلام، سواء تعاطياً لها أو وصفها، والفخر بشربها، فمنهم من وصف الرحلة في جلبها من الشام إلى الأسواق، على نحو ما نجدهفي قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي حين يصف "الخمرة في القلال، تأتي بها القافلة من أذرعان وبُصرى وغزة إلى عسفان ثم إلى مَجَنَّة، ثم إلى ذي المجاز"[١٢]، يقول فيها[١٣]:

فما فَضْلَةٌ من (أذْرِعاتٍ) هَوَتْ به مُذَكَّرَةٌ عَنْسٌ كهادِيَةِ الضَّحْلِ
سُلافةُ راحٍ ضُمِّنَتها إداوةٌ مُقيرَّةُ رِدْفٌ لآخِرةِ الرَّحْلِ
تَزَوَّدَها من أهلِ "مصرٍ" و"غَزَّةٍ"علي جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيلِ والكِفْلِ
فوافَى بها "عُسْفانَ" ثُمّ أَتَي بها "مَجَنّةَ" تَصفو في القِلالِ ولا تَغلِي
فَرَّوحَها مِن "ذي المَجازِ""عَشِيّةً" يُبادِر اولىَ السابقاتِ إلى "الحَبْلِ"
فبات "بجَمعٍ" ثُمّ تمَّ إلى "مِنًى" فَأَصْبَحَ رَأْدًا يبتغي المِزْجَ بالسَّحْلِ

تكشف هذه الأشعار عن ما للخمر من أثر في الحياة الجاهلية، فهذا السرد الشعري لرحلة تجارها وأماكن التي تُجلب منها، والتي تمر بها، والتي تستقر فيها،يجسداعتزاز الشاعر وسروره، بالحصول

على هذا النوع من الخمر، فضلاً عن هذا الوصف يكشف عن جودتها. المتلقي العربي حينما يطرق أسماعه هذا التوصيف يدرك جيداً قيمة وجودة الخمر التي اقترنت بهذه الأماكن، ومشقة الرحيل في سبيل حيازتها، فالتعاقد الاجتماعي في هذه الأبيات خير معين على تفسير العناصر اللغوية، فالسنن ينهض بدور بارز في تجسيد الوظيفة المرجعية التي تعد"قاعدة كل تواصل، ذلك أن الرسالة التي تهيمن عليها الوظيفة المرجعية، هي التي يكون محتواها يحيل إلى المعلومات الواردة فيها، وتسمى أيضا الوظيفة التمثيلية للغة، باعتبار أنعناصر اللغة المستعملة، هي تمثيل أو مراجع لكل ما نريد أن نبلغه للمتلقي"(١٤).

ولا بد من وجود نوع من المجاورة بين المتخاطبين في أي تواصل كلامي لضماننقل الخطاب. والفاصل في المكان، وفي الزمان يتم ردمه بعلاقات لغوية داخلية،إذ لابد من وجود تسام محدد بين الرموز اللغوية التي يستعملها المتكلم والرموز المعروفة، والمؤولة لدى المتلقي وهي (فونيمات ، وكلمات ، وجمل...).

هذا ومن الشعراء مَن حرص على التغني بغلاء الخمر، وقد عرفت بغلاء سعرها، وقد "ذكر غير شاعر غلاء الخمر في شعره، وفخره باسنبائها على غلائها، وبذله المال في سبيل الحصول عليها بغير مساومة مع تاجرها"، يقول عبيد بن الأبرص في قصيدة يخاطب فيها امرأ القيس، منكراً عليه تهديده لبني أسد بالانتقام منهم لمقتل أبيه حجر، ثم يفخرُ بقومه، ومن ضمن ما فخر به كان شراؤهم الخمر على غلاء ثمنها(١٥):

نُغْلي السباءَ بِكُلِّ عا تقةٍ شِمُولٍ ما صحونا
ونُهينُ في لـذَّاتِها عُظْمِ التلادِ إذا انْتَشِيْنا

والسباء هو شراء الخمر

إذ نشهد وظائف الخطاب ولاسيما الوظيفة المرجعية،وتتصل بسياق الخطاب الخارجي والوظيفة التعبيرية، التي تتصل بالمرسِل(الشاعر) والوظيفة التأثيرية، التي تتصل بالمخاطَب، إذ "تقوم اللغة بوظيفة مرجعية، باعتبار أن المتكلم يحيل، بواسطة خطابه، على واقع. هذه الإحالة على الواقع هي في الوقت ذاته تواصل بين المتخاطبين بهذا المعنى، تكون الوظيفة المرجعية وظيفة تواصلية أثناء التواصل، يعبر المتكلم عن ذاته ويسعى إلى التأثير في المخاطب فيكون الخطاب بذلك، مؤدياً، بالإضافة إلى الوظيفة المرجعية للوظيفتين التعبيرية، والتأثيرية"(١٦). وتطالعنا أبيات للبيد بن ربيعة لتتجسد فيها الوظيفة التعبيرية، من خلال استعمال الضمائر التي تعبر عن ذات الشاعر،فيقول في السياق نفسه(١٧):

قَد بِتُّ سامِرَها، وغَاية تاجرٍ وافيتُ إذ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامُها
أُغْلي السِّباءَ بكلِّ أدْكَنَ عاتقٍ أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُه
وَصَبوحِ صافيةٍ وجذبِ كرينةٍ بموَتَّرٍ تأتـالُهُ إبهامُهَا

على هذا النحو تتجلى قيمة الخمر بوصفها مشروباً تضفي على شاربها شعوراً بالانتشاء والفرح والمتعة، ولاسيما في ليالي السمر واللهو، وقد تفنن الشعراء في وصفها ووصف مجالسها، والمشاعر التي يحدثها الشرب، يقول المرقش الأصغر:

وما قَهْوَةٌ صَهبْاءُ كالمِسْكِ رِيحُها تُعَلَّي علي النَّاجُودِ طَوْراً وتُقْدَحُ
ثَوَتْ في سِباءِ الدَّنِّ عِشْرِين حِجَّةً يُطانُ عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّحُ
سَباها رِجالٌ من يَهُودَ تَباعَدُوا لِجِيلَانَ يُدْنيها من السُّوقِ مُرْبِحُ
بِأَطْيَبَ مِنْ فيها إِذَا جئت طارفامنَ اللَّيْلِ بَلْ فُوها أَلَذُّ وأَنْصَحُ

وفي السياق نفسه يقول زهير بن أبي سلمى(١٨):

وَقَد أَغدو عَلى ثُبَةٍ كِرامِنَشاوى واجِدينَ لِما نَشاءُ
لَهُم راحٌ وَراوُوقٌ وَمِسكٌتُعَلُّ بِهِ جُلودُهُمُ وَماءُ
يَجُرّونَ البُرودَ وَقَد تَمَشَّتحُمَيّا الكَأسِ فيهِم وَالغِناءُ
تَمَشّى بَينَ قَتلى قَد أُصيبَتنُفوسُهُمُ وَلَم تُهرَق دِماءُ

تبرز في هذه الأشعار خطاب لغوي يجسد حياة اللهو والغناء والسمر، والخطاب في هذا اللون الشعري، الذي بوسعنا تسميته بالخمريات، حينما يصف أماكن متصلة بهذا الخطاب، وفخره بمعاقرة أغلاها ثمناً، ووصفه للذة شربها، ومجالس الخمر واللهو، هذه العناصر اللغوية كلها تحيل إلى واقع ألفه الشاعر، وهو ليس بغريب عن المخاطَب في البيئة الجاهلية، من هنا تتجلى وظائف هذا الخطاب الشعري، التي نستشفها من عناصر تشكيله التي ذكرناها آنفاً، وعندما "تستعمل اللغة للتعبير عن فحوى يُشكل تجربة المتكلم بالنظر إلى الواقع الذي يعيشه سواء أكان ذلك الواقع مرتبطاً بالعالم الخارجي أم كان مرتبطاً بذات المتكلم .في هذه الحالةتكون اللغة مؤدية للوظيفة التمثيلية، أي لوظيفة «التمثيل»لما يعيشه المتكلم من واقع. وبتأديتها لهذه الوظيفة، تسهم اللغة في تحديد رؤية متكلميها للواقع، فيكونلها، بذلك، نصيب هام في تركيب تجربتهم ومعاناتهم لهذا الواقع"(١٩)

وهذه الأشعار وغيرها كثير جداً تحيل إلى أن الخمر ومعاقرتها، جزء من تلك الحياة العربية التي يحفل بها العصر الجاهلي، من هنا كان التدرج في التحريم ضرورةً تقتضيها مرحلية هذا المناخ، فكان التحريم متدرجاً من الشديد إلى الأشد. إذ" انبنت حركة الأسلمة التصاعدية للمجتمع

الجاهلي باتجاه بناء الدولة الإسلامية، عبر ما يمكن وصفه بجدلية هدم وبناء مؤسسية، ارتكزت على ثلاثة متغيرات؛ هي: التحريم والإقرار والتغيير. تم بموجبها إنشاء مؤسسات بديلة لمؤسسات جاهلية قديمة؛ شُجبت ورُفضت وبالتالي هُدمت، أو إقرار مؤسسات موجودة على حالها، أو إدخال تحويرات على مؤسسات موجودة بما يتماشى مع متطلبات الدولة الإسلامية الناهضة"(٢٠).

الخمر في القرآن الكريم :-

لقد انصبت تلك المعاني والدلالات التي جسّدها الشعر في غرض واحد هو مخالطة الخمر لتفاصيل الحياة في العصر الجاهلي، مخالطة مبعثها اللذة والبهجة التي تطغى على حواس شاربها، وهذه المشاعر تضع الخمر في خانة يسعى اليها محبوها وعشاقها. ويأتي القرآن ليقف بوجه هذا الجموح السلوكي ليبرز لنا التقابل الأول في مفهوم الخمر بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، إذإن ما جاء بخصوص الخمر في القرآن في العهد المكي إشارات، تلمح إلى أنها من الاثم والفواحش، حيث عمد الإسلام إلى الانقلاب عليها، وثمة إشارة إلى نتائجها وهو السكر في قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً وَرِزقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَعقِلُونَ}[سورة النحل: ٦٧] في الآية إشارة إلى نتيجة من نتائج الخمر، وفيها تلميح بسوئها، "وتقييد الرزق بكونه حسناً ، إشارة دقيقة يلمحها البلاغي في تحقيقه ، والمتشرع في استنباطه ، إلى أن هناك ما ليس بحسن وهو السَكَر ، فكأن هناك رزقين رزقاً طيباً وصف بالحسن ، وهو المباح من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وسواهما ، ورزقاً غير طيب ، وهو المحرم مما تتخذ منه المسكرات ، فكان بين الاثنين مقابلة. وليس فيذلك أدنى إشارة إلى تحليل المسكرات"(٢١). إلا أن هذه الإشارة أيضاً تعد الخطوة نحو الانقلاب على ثوابت الجاهلية، لأنها تفقد الانسان الشيء الكثير من إنسانيته. ولقد جاء التصريح الأول بذكر مساوئ الخمر، في سياق ألفناه من البيان القرآني، وهو تلك السؤلات التي أثارها الصحابة حول أمور وجدوها لا تتفق والنهج الإسلامي، تدفعهم في ذلك أسباب كثيرة منها معرفة موقف الإسلام من هذه الأمور، أو عدم الاقتناع بها على الرغم من مزاولتها، فكان النهج الدعوي في تربية النفوس يترك أتباعه هم الذين يسألون ويتحرون؛ ليغدو الترك والانتهاء متقبلا، بل ومرحباً به، من هنا أولى مراحل التحريم أثارها الصحابة، التي عبر عنها البيان القرآني بقوله تعالى: {يَسئَلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسَرِ قُلْ فِيهِمَا إِثمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثمُهُمَا أَكبَرُ مِن نَّفعِهِمَا}[سورة البقرة : ٢١٩]

فالخطاب في الآية ينقل لنا واقعاً جديداً وتخلخلا خفياً حول قناعات ثابتة، وأن ثمة جدلاً وصراعاً بين الصحابة حول مقبولية الخمر والميسر بعد هذا الانقلاب العقدي والفكري، وكأن ثمة شك

أصبح يتسرب إلى نفوس الصحابة من أمور مثل الخمر والميسر، لأن تعاليم الدين الجديد لا تنسجم البتة مع وجود هكذا أمور، من هنا لجأ الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه عن ما داخل نفوسهممن شك وما أثير بينهم من تساؤلات، لتنزل الآية الكريمة تكشف عن أن الإجابة حاضرة في الخطاب الإسلامي، بيد أن طرحها لابد من أن يكون في الوقت المناسب، ولابد من أن تكون النفوس متهيئة لسماع رؤية الإسلام وتقبلها. والآية الكريمة "اسْتِئْنَافٌ لِإِبْطَالِ عَمَلَيْنِ غَالِبَيْنِ عَلَى النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهُمَا شُرْبُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرُ وَهَذَا مِنْ عِدَادِ الْأَحْكَامِ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي هَاتِهِ السُّورَةِ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى إِصْلَاحِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ"(٢٢).

ثم ينقلنا الخطاب القرآني إلى الدرجة الثانية من مراحل التحريم حين يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا آلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُم سُكَرَى حَتَّى تَعلَمُوا مَا تَقُولُونَ}[سورة النساء: ٤٣]

لعل الملحوظ في هذه الآية الكريمة الأول هو أن الخطاب فيها موجه حصراً إلى فئة معينة (الذين آمنوا) بالنداء أولاً، ثم النهي ثانياً، إذ تبرز في هذا السياق الوظيفة الانفعالية التي تركز على المرسل وموقفه مما يتحدث عنه، الإفهامية التي طغى فيها جانب التنبيه والتوجيه، من خلال لفت الانتباه إلى يترتب على شرب الخمر من أحوال تتمثل في اختلال في القول والفعل، من هنا قال تعالى: "(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) غَايَةٌ لِلنَّهْيِ وَإِيمَاءٌ إِلَى عِلَّتِهِ، وَاكْتَفَى بِقَوْلِهِ (تَقُولُونَ) عَنْ تَفْعَلُونَ لِظُهُورِ أَنَّ ذَلِكَ الْحَدَّ مِنَ السُّكْرِ قَدْ يُفْضِي إِلَى اخْتِلَالِ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ، إِذِ الْعَمَلُ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الِاخْتِلَالُ بِاخْتِلَالِ الْعَقْلِ قَبْلَ اخْتِلَالِ الْقَوْلِ"(٢٣).

ثم يلي ذلك خطاب يقطع كل سبيل على الخمر وشاربهاوذلك في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الخَمرَ وَالمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزلاَمُ رِجسٌ مِّن عَمَلِ الشَّيطَنِ فَاجتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَنُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ العَدَوَةَ وَالبَغضَاءَ فِي الخَمرِ وَالمَيسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ}[سورة المائدة:٩٠-٩١]

وتحريم الخمر بهذا التدرج تقتضيه طبيعة المناخ الجاهلي وطبيعة البيئة العربية؛ لارتباطهما بالخمرة أدبياً،واجتماعيا، وتجارياً؛ مما يقتضي التدرج من الصعب إلى الأصعب، إذ كان شعر الخمر شائعاً في العصر الجاهلي يتغنى به، وتحيا به الأندية والمجالس والمحافل ، وكانت المقدمة الخمرية معروفة في التناول، والتدوال، والايقاع الفني ، ولا أدل على ذلك ولا أشهر من مطلع معلقة عمرو بن كلثوم(٢٤):

ألا هبي بصحنك فأصبحيناولا تبقي خمور الأندرينا(٢٥)

من هنا كان الاقلاع عن شربها . والإسلام قريبُ عهدٍ بالجاهلية . يدعو إلى تغيير العادات والتقاليد الموروثة؛ مما يقتضي جهداً مضاعفاً، وأسلوباً مرناً في المعالجة، فكان التدرج في التحريم الوسيلة المثلى لذلك.وثمة عامل مهم يرتبط بالجانب الاقتصادي لقريش، والأخيرة لها رحلتان للتجارة صيفاً وشتاءً، والخمر إحدى المفردات في هذه التجارة، فالأمر مرتبط بأرزاق القوم، وكل أمر يصطدم بالرزق، يستدعي الرفض والمجابهة[٢٦]، قال تعالى :{ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} سورة قريش .

ويقدم القرآن ويعرض تقابلاً ثانياً، وذلك بظهور مفهوم جديد للخمر، ألا وهو خمر الجنة، انطلاقاً من الصفات التي تميزت بها، إذ هي مُخَلصة من الآثار التي تتركها خمر الدنيا على شاربها، فهي من شراب الجنة، واللذة متحققة في شربها، "فخمر الجنة لا يشبه خمر الدنيا، هو لا يُسكر، أي لا يذهب العقل، كما ذُكر في القرآن الكريم أيضاً {يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ}[سورة الصافات:٤٥-٤٧]وقوله تعالى {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}[سورة الطور: ٢٣]. هذه الصفات التي يذكرها النص القرآني، ترتبط بمعنى كلمة الخمر بوصفها تحجب العقل كالخِمار، فالجنة خمرها أبيض ولا يسكر شاربها، ولا تؤدي إلى آلام مختلفة في الجسد، كذلك لا يدخل شاربها في متاهات اللغو والأحاديث الناتجة عن السكر"[٢٧].

٢- المَيْسِر :-

من "يَسَرَ واليَسْرُ" اللِّينُ وَالِانْقِيَادُ يَكُونُ ذَلِكَ للإِنسان وَالْفَرَسِ، وَقَدْ يَسَرَ يَيْسِرُ . وياسَرَه: لايَنَهُ"[٢٨].

وصفة الميسر : "أن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجزور بينهم، فيقسمونها على عشرة أجزاء ،ويُؤتى بالحرضَة، وهو رجل يتأله، لم يأكل لحمًا عندهم قط بثمن، ويؤتى بالقداح، وهو أحد عشر قِدْحًا، سبعة منها لها حظ إن فازت، وعلى أهلها غرم إن خابت، بقدر من الحظ إن فازت، وأربعة ينفل بها القداح، لا حظَّ لها إن فازت ولا غرم عليها إن خابت، أما الضريب فهو: الرقيب.وأما الأربعة التي ينفصل بها القداح، فهي: السفيح، والمنيح، والمضعف، والوغد"[٢٩].

ومثل هذه التجمعات كانت تحدث في الأندية والمجالس التابعة للقبائل.ويروي المرزوقي عن مجالس العرب بقوله "وكان أماثل الناس وأغنياؤهم إذا اشتد الزمان وجدَّ القحط والجدب يجلسون مجالس يدبرون أمر الضعفاء، ويفرقون فيها ما حصل عندهم من فضل الزاد،وينصبون الميسر، وينحرون الجزر متبارين فيها ومتباهين"[٣٠]. وكان هؤلاء السادة والاغنياء يحرمون على أنفسهم هذا اللحم، ولا يأكلون منه.

لذا يمكن أن يعد افتخار الشعراء بنادي القبيلة، هو افتخار بالميسر، والأخير لا يعد لعبة (قمار) فحسب، وإنما هو من بطولات العربي آنذاك التي تتمثل بالكرم وإغاثة الفقراء والمساكين في أوقات الجدب، وهذا ما يُفهممن قول الشاعر المرقش الأكبر حين يفخر بقومه[٣١]:

شُعْثُ مَقَادِمُنَا، نُهْبَى مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا

المُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ وَخَيْرُ نَادٍ رَآهُ الناسُ نَادِينا

على هذا النحو يبرز في هذه الأشعار اقتران الميسر بالفخر بالقبيلة ومدح السادة،فالشعر"الذي عرض للميسر قد اختص به الشعراء الفرسان الذين برزوا في مضمار البطولة"[٣٢]. من ذلك قول الشاعر دريد بن الصمة الجسمي، وهو يرثي أخيه خالداً، والأخير من سادة عشيرة جُشَم، من قبيلة هوازن:

يا خالداً خَالِدَ الإيسَارِ وَالنادي وَخَالِدِ الريح إِذْ هَبَّتْ بِمُرَاد

"وهو ما قد يجد مصداقاً له في إشارة الشاعر الجاهلي المُرَقِّش الأكبر البكري للميسر باسم البشريمدح قومه الياسرين الذين يرفدون الأضياف بلحوم الإبل المتقامر عليها بضرب القداح حين تشتدرياح الشتاء"[٣٣].وذلك حين يقول[٣٤]:

بِوَدِّكِ مَا قَوْمِي عَلَى أَنْ هَجَرْتُهُمْ إِذَا أَشْجَذَ الأَقْوَامَ رِيحُ أَظَائِف

وَكَانَ الرَفَادُ كُلَّ قِدْحٍ مُقَرَّمٍ وَعَادَ الجَمِيعُ نُجْعَةٌ لِلزَّعَانِفِ

جَدِيرُونَ أَنْ لَا يَحْبِسُوا مُجْتَدِيهِمُ لِلَحْمِ وأَنْ لَا يَدْرَؤُوا قِدْحَ رَادِفِ

عِظَامُ الجِفَانِ بِالعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى مَشَابِيطُ لِلأَبْدَانِ، غَيْرُ التَّوَارِفِ

إِذَا يَسَرُوا لَمْ يُورِثِ البَسْرُ بَيْنَهُمْ فَوَاحِشَ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالمَصَابِفِ

كما ورد الميسر في أشعار الجاهليين في سياقات متعددة، منها الوصف، كما في قول أَبي ذؤَيب يَصِفُ الْحِمَارَ وأُتُنَه[٣٥]:

وكأَنهنَّ رِبابةٌ، وكأَنهيَسَرٌ، يُفِيضُ عَلَى القِداح، ويَصْدَعُ

وقول كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ[٣٦]:

لَهَا خَلْفَ أَذْنابِها أَزْمَلٌ مكانَ الرَّقِيبِ مِنَ الياسِرِينا

والرَّقِيبُ المُوَكَّل بالضَّريب، وَقِيل: هُوَ أَمِينُ أَصحابِ المَيْسِرِ

على هذا النحو تكشف هذه الأشعار دلالة الميسر الإيجابية في العرف الجاهلي، من هنا جاء تحريمه متدرجا أيضا، إذ لم يُحرم دفعة واحدة، "فمن خلال التخصيصين في إشارة القرآن الصريحة إلى وجود منافع للخمر والميسر، يمكن القول إن تحريمهما لم يكن لذاتهما أو بسبب

ارتباطهما بالطقوس الوثنية فحسب، بل لارتباطهما على ما نرى بممارسات اجتماعية منغرسة بقوة في المجتمع الجاهلي كان يتطلبها السير الطبيعي للمجتمع المراد تغييره. ولعلّ إشارة القرآن إلى منافع الخمر والميسر هي إشارة إلى هذا الأمر بالدرجة الأولى"[٣٧]. ويقول ابن قتيبة في منافع الميسر"أما منافع المَيْسِر ، فإن أهل الثروة والأجواد من العرب كانوا في شدة البرد وجذب البلاد وكلب الزمان ييسرون أي يتقامرون بالقداح... فإذا تمر أحدهم، جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة وأهل المسكنة"[٣٨].

وعلاقة الخمر بالميسر علاقة متأصلة، ولقيس الجعفري العامري بيتان يشكو فيهما لوم زوجتيه على لهوه، وهما دليل واضح في هذا السياق[٣٩]:

وقد أشعرتني جارتايَ ملامةً على اللهو يوما في القداح وفي الخمر

وعقري لأصحاب الغداة مطيتي إذا أرملوا زاد بأبيض ذي أثر[٤٠]

من هنا اقترن تحريم الميسر بتحريم الخمر، وقد ورد ذكر الميسر في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْنَفْعِهِمَا}[سورة البقرة:٢١٩]

والمَنافِعُ التي أشار إليها القرآن الكريم، أَمَّا فِي الْخَمْرِ فَالرِبْحُ في التِّجَارَةِ، إذ كَانُوا يَجْلِبُونَهَا مِنَ بلاد الشَّامِ بِرُخْصٍ،ويَبِيعُونَهَا فِي الْحِجَاز بِربحٍ، وَقِيلَ فِي مَنَافِعِهَا، أنها تُقَوِّي الضَّعْفَ، وَتجعل الْبَخِيلَ سخياً،وَتَزِيد صفاء اللَّوْنَ، فضلاً عن اللَّذَّةِ التي يستشعرها شاربُها. أما منفعة الميسر فمَصِيرُ الشَّيْءِ والحصول عليه فِي الْقِمَار، بِغَيْرِ كَدّ، وَلَا تَعَبٍ[٤١]. إذ "كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ أَنْ تَضْرِبَ الْجَزُورَ بِهَذِهِ السِّهَامِ فِي الشَّتْوَةِ وَضِيقِ الْوَقْتِ وَكَلَبِ الْبَرْدِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، يُشْتَرَى الْجَزُورُ وَيَضْمَنُ الْأَيْسَارُ ثَمَنَهَا وَيَرْضَى صَاحِبُهَا مِنْ حَقِّهِ، وَكَانُوا يَفْتَخِرُونَ بِذَلِكَ وَيَذُمُّونَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَيُسَمُّونَهُ" الْبَرَمَ"[٤٢]، قَالَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ:

وَلَا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءُ لِعُرْسِهِ إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا

وعلى ما يبدو أن الميسر كان طقساً تتعاهده العرب، ويحرص سادتهم على مزاولته والعمل عليه، وتعيينه بالتحريم مشروط بارتفاع درجةخطورته التي تبرر تحريمه في القرآن دون غيره من ألعاب القمار، وهذا الأمر يحتوي ضمنياً على أبعاد عقدية، واجتماعية، وسياسية عميقة، تتجاوز بعدها الأخلاقي الظاهر، وتبرر شجبه، وتحريمه بحدة،والإسلاميريد بدوره بناء نظام عقيدي، واجتماعي، وسياسي جديد[٤٣].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَإِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}[سورة المائدة:٩٠-٩١]

والملاحظ تصدر الخطاب بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} الاستجابة مقرونة بالايمان الذي لا يخالطه خروج عن دعوة الإسلام،و"جعلهما رجسا، كما قال تعالى: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ) ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان... ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتنابفلاحا، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر"(٤٤).

إن فعل التغيير الذي مارسه الإسلام على بعض المؤسسات الجاهلية لم يكن ليتحقق، إلا في ظل ثلاثة شروط متزامنة، وهي التي جعلت من حركة التغيير واقعاً مفروضاً، وأحد هذه الشروط هو جوانيبنيوي بالنسبة للمؤسسة التي تتعرض للتغير، وهو أن تكون هذه المؤسسة معطوبة.وهذا ما كان عليه الأمر في المجتمع الجاهلي، أما الشرطان الآخران فبرانيان وظيفيان، بالنسبة للمؤسسة المراد تغييرها، وهما أن تكون عملية التدمير، أو التحوير متوائمة ومنسجمة مع الحركة الكلية للتغيير الاجتماعي في الاتجاه، وفي القوة، والبديل المؤسسي جاهز للحلول محلها على الفور، وقادر على أداء الوظائف التي تقتضيهاحركة، التغيير الكلية(٤٥).

الانصاب: –

أصل الأنصاب من نصب و"نَصْبُ الشيءِ: وَضْعُهُ وضعاً ناتئاً كنَصْبِ الرُّمْحِ، والبِنَاء والحَجَرِ، والنَّصِيبُ: الحجارة تُنْصَبُ على الشيءِ، وجمْعُه: نَصَائِبُ ونُصُبٌ، وكان للعَرَبِ حِجَارَةٌ تعْبُدُها وتَذْبَحُ عليها"(٤٦).

والنُّصُبِ" حَجَرٌ كَانَ يُنْصَبُ في الجاهلية، فَيُعْبَدُ، وَتُصَبُّ عَلَيْهِ دِمَاءُ الذَّبَائِحِ، وكَانَتْ حَوَالَيْ مَكَّةَ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَذْبَحُ بِمَكَّةَ، وَتَنْضَحُ بِالدَّمِ مَا أَقْبَلَ مِنَ الْبَيْتِ، وَيُشَرِّحُونَ اللَّحْمَ، وَيَضَعُونَهُ عَلَى الْحِجَارَةِ(٤٧).

ورد ذكر الانصاب في الشعر الجاهلي في سياقات القسم بها بوصفها من المقدسات التي يعظم شأنها في عقيدة الانسان العربي في العصر الجاهلي، وتوظيف القسم بها في هذا المقام الشاعر يسعى إلى تأكيد ما يخبر عنه، ويسعى إلى التأثيربالمخاطَب وبصدق محتوى خطابه، من هنا تبرز الوظيفة التعبيرية التي تتصل بالمرسِل، والوظيفة الإفهامية التي تتصل بالمرسَل إليه في هكذا سياقات، لأن توظيف القسم في خطاب ما يحيل إلى أن ثمة إنكار للخبر بل وحتى تكذيبه،

فيلجأ المرسل إلى أساليب خطابية، تسهم في إنجاح العملية التواصلية عبر الإفهاموالتأثير والإقناع، وهذا ما نجده ماثلاً في هذه الأشعار، إذ ورد ذكر الأنصاب مقسما بها، ولا يكون القسم إلا بما هو مقدس، فذكرها يشكل عنصر توكيد وضمان بصدق خطاب الشاعر في ذلك العصر، وضمان أيضاً لأركان الخطاب الثلاثة المرسل والمرسَل إليه والرسالة، فالمرسل يعول ويتعكز على قدسية ما أقسم به، لإقناع المرسل إليه، بصدق رسالته، فضلاً عن أن القسم يحيل إلى وظيفةأخرى هي الوظيفة الانتباهية،وتبرز في إثارة المرسَل إليه وشد انتباهه، وتأمين استمرارية العملية التواصلية.

يقول طرفة بن العبد(٤٨):

إنّي وَجَدِّكَ، ما هَجَوْتُكَ، وَالْ أنْصَابِ يُسْفَحُ بَيْنَهُنَّ دَمُ

ولقَد هَمَمْتُ بذاكَ إذ حُبِسَتْ وأُمِرّ دونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ

أخشى عِقابَكَ إن قَدَرْتَ ولم أغْدِرْ فيُؤثَرَ بيننا الكَلِمُ

ويقول المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر:

أطردتني حذر الهجاء ولااللات والأنصاب لا تئل

ويقول النابغة الذبياني(٤٩):

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد

"" في رواية أخرى، ديوانه "٢٥"

يقول زهير:

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدًاوما سحقت فيه المقاديم والقمل

فذكر الأنصاب في سياق القسم ضمان بمصداقية الرسالة عند طرفي الخطاب المرسل والمرسَل إليه، انطلاقاً من القدسية التي تحظى بها في وجدان العرب في الجاهلية، من هنا هو نمط خطابي شائع عند العرب، يوظف ندفع تهمة أو تأكيد خبر أو معلومة.

أما في سياق الوصف فيقول سلامة بن جندل مشبهاً أعناق الخيل وهي أيضاً(٥٠):

والعادياتُ أسابيَّ الدِمَاء بها كأنَّ أعناقَها أنصابُ تَرَّجيْبَ

الانصاب في القرآن

ورد ذكر الانصاب في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}90 المائدة

{مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ...}[سورة المائدة:٣]
{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ}[سورة المعارج: ٤٣]

وردت الأنصاب في القرآن الكريم في سياق التحريم مرتين، الأولى حين جُعلت مع الخمر والميسر، والثانية في سياق تحريم لحوم دواب حللتها العرب في الجاهلية قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ}، فالخطاب القرآني حينما حرم الأنصاب، قد يفسر أن لحوم الدواب التي تذبح عليها حلال، من هنا ورد تحريم ماذبح على النصب، والأخير هُوَ مَا كَانُوا يَذْبَحُونَهُ مِنَ الْقَرَابِينِ وَالنُّشُرَاتِ فَوْقَ الْأَنْصَابِ. وَالنُّصُبُ– بِضَمَّتَيْنِ– الْحَجَرُ الْمَنْصُوبُ، فَهُوَ مُفْرَدٌ مُرَادٌ بِهِ الجنس، وَالنُّصُبُ كَانَ صَخْرَةً غَيْرَ مُصَوَّرَةٍ، بَلْ هِيَ مَوْضُوعَةٌ لِأَنْ تُذْبَحَ عَلَيْهَا الْقَرَابِينُ، وَالنَّسَائِكُ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا لِلْآلِهَةِ وَلِلْجِنِّ. وَيُرْوَى: أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُعَظِّمُونَ الْكَعْبَةَ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ، وَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، عَظُمَ عَلَيْهِمْ فراقُ الْكَعْبَةِ، فَقَالُوا: الْكَعْبَةُ حَجَرٌ، فَنَحْنُ نَنْصِبُ فِي أَحْيَائِنَا حِجَارَةً، تَكُونُ لَنَا بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ، فَنَصَبُوا هَذِهِ الْأَنْصَابَ، وَرُبَّمَا طَافُوا حَوْلَهَا، وَلهذا يُسَمُّونَهَا الدُّوَّارَ[٥١].

ومن خلال الاشعار التي ذكرناها، وغيرها كثير، تتجلى منزلة الانصاب في المجتمع الجاهلي وقدسيتها، فكثرة القسم بها خير دليل على ذلك، فضلاً عن الممارسات التي ترتبط بها من ذبح عليها أو الطواف حولها، هذه الشعائر بكليتها حرمها الإسلام؛ لأنها جزء من المنظومة الوثنية، التي عمد الإسلام إلى هدمها، من هنا جاء الخطاب القرآني مواجهاً، مواجهاً لنظام اجتماعي، الشعر ركن أساسي فيه، فغدا ذلك التغني بالأنصاب والقسم بها (رجس من عمل الشيطان)، و"الرِّجْسُ: الشيء القذر، يقال: رجل رجس، ورجال أَرْجَاسٌ. قال تعالى: {رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ} [المائدة: ٩٠] ، والرِّجْسُ يكون على أربعة أوجه: إمّا من حيث الطّبع، وإمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الشرع، وإمّا من كلّ ذلك"[٥٢]، فوصف هذه العقائد بالقذارة، التي هي من عمل الشيطان تجتمع فيها الأوجه الأربعة، من هنا يتجلى البعد التواصلي للقرآن الكريم، في أسلوبه وطرحه ومعالجته لكثير من الأمور الشائكة والمتأصلة في وجدان الانسان العربي في العصر الجاهلي، إذ "عمل القرآن الكريم (في خطابه)على ابتكار أساليب تواصلية فعالة، حيث نجده ينوع هذه الأساليب بحسب المقام والسياق، مما يجعله يتجاوب مع النفس البشرية في أبعادها المختلفة والمتنوعة ، فمرة يخاطب فيه العقل، ويرشده إلى إعمال الفكر والنظر، والتفكر في الخلق، واستنباط السنن الكونية، ومرة يخاطب فيه الروح بأشواقها وتطلعاتها ، وآمالها وآلامها . ومرة يرشده إلى الاستدلال المنطقي، ومرة يفتح عينيه على البديهيات"[٥٣].

الأزلام :-

أصـــله في اللغة من "زلم: الزُّلَمُ، والزَّلَمُ، وجمعه: أزلام، وهي القِداح التي لا ريش لها، كانت العرب تَسْتَقْسِمُ بها عند الأمور إذا همّ بها أحدهم، مكتوبٌ عليها: افْعَلْ.. لا تَفْعَلْ"[٥٤]:

فرمى فأخطأه وجال كأنّه زَلَم علىالأماعز منعب[٥٥]

فالأزلام بهذا المعنى، نوع من الطيرة التي يؤخذ بها عند العزم على القيام بشأن ما سفر كان أو غزو، أو زواج...على الأغلب كما تذكر المدونات التي أرخَّت لهذا العرف الذي يعد ركناً من أركان العقيدة الجاهلية، وتتبدى سمة القدسية من حيث كان العرب يأخذون به، فيأتمرون بالقدح الآمر، وينتهون بالقدح الناهي، ويكشف حرص العربي على رمي الأقداح عند الهم بفعل ما عن تقديس هذا العرف ولاسيما " أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفرًا أو غزوًا أو نحو ذلك، أَجال القداح، وهي"الأزلام" وكانت قِداحًا مكتوبًا على بعضها:"نهاني ربّي"، وعلى بعضها:"أمرني ربّي "فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه:"أمرني ربي"، مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب:"نهاني ربي"، كفّ عن المضي لذلك وأمسك"[٥٦]

من هنا والشعر ديوان العرب ورد ذكر الازلام في الشعر الجاهلي كما أسلفنا بوصفه عرفاً مقدساًسائداً عند العرب،يقول طرفة بن العبد[٥٧]:

فَسَعَى الغَلّاقُ، بَينهُمُ سَعْيَ خَبٍّ كاذبٍ شِيَمُهْ
أخذَ الأزلامَ، مُقْتَسِماً فأتى أغْوَاهُمَا زُلَمُهْ
والقَرَارُ، بَطْنُهُ غَدَقٌ زَيّنَتْ جَلْهَاتِهِ أكَمُهْ
ففَعَلْنَا ذَلِكُمْ، زَمَناً ثمّ دانى، بينَنا، حَكَمُهْ
إنْ تُعِيدُوهَا نُعِدْ لكُمُنْ هِجاءٍ، سائرٍ كَلِمُهْ

وعلى الرغم من مزاولة هذا الطقس أو العرف على نطاق واسع، لم يكن ملزما العمل به، إذ تذكر الروايات أنه "لما أقبل امرؤ القيس بن حجر يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة، وكان صنما بتبالة، وكانت العرب جميعا تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح: الآمر، والناهي، والمتربص، فاستقسم عنده ثلاث مرات:فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب وجه الصنم"، وقال[٥٨]:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

لقد افرز خطاب امرئ القيس وهو يلوم صنمه النزعة الإنسانية المثقلة بمآسيها وآلامها وهمومها، وهي ترزح تحت وطأة هذا العبء محتجة على موقف الآلهة المخالف لعزمه على الأخذ بثأر، ابيه، فهذا الخطاب يحيلنا إلى وظيفة أساسية تتملكه، هي الوظيفة التعبيرية، لأن المخاطب لا يعدو أن يكون جمادا لا ينطق، و"الوظائف التعبيرية هي التي يتجاوز فيها الخطاب تقرير المعلومات وسردَ الحقائق المجردة، ليصبح الخطاب فيها معبرًا عن أمر ينحاز إليه المرسل، أو يرغب فيه، أو يؤكده، أو يعاني منه أو يستهجنه. ولا نقصد أنّ الخطاب في هذه الحال يخرج عن كونه معلومات وأفكارًا، ولكننا نقصد أنه يستخدم هذه المعلومات والأفكار من أجل بيان موقفه، أو بيان أثرها فيه"[٥٩].ولقد جاء الإسلام ليقوم بمهمتين في آن واحد عملية هدم وبناء، فكل طقوس الوثنية التي كانت محط اعتزاز يصل الى حد التقديس في بعضها، طاله التقويض والهدم؛ بالمصطلح الإسلامي المتمثل بالتحريم الذي" جاء شاملاً لممارسات لا بد أن تكونبينها روابط هي من الصلابة بحيث تم تحريمها مجتمعة. فالقرآن على ما نرى لم يربط بين تلك الممارسات عبثاً، بل رأى فيها عناصر منظومة عقدية شعائريةمتكاملة هي المقصودة بالتدمير، إنها تشكل إطاراً مرجعياً جاهلياًهو المقصود بالضرب"[٦٠].

ورد لفظ الأزلام في القرآن مرتين

أولاهما: قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ.} [سورة المائدة:٣]

وقوله تعالى: والأخرى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[سورة المائدة:٩٠]

لقد أفرغ الخطاب القرآني في هاتين الآيتين انقلاباً على عقائد الجاهليين، ليوصد الباب على مرحلة تاريخية بخطاب يقابل ويواجه أفكاراً وعقائد متجذرة في المجتمع الجاهلي، وليصرح للمخاطب العربي، في مطلع سورة المائدةبنداء{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ ...}و{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...}وبعد هذا النداء جاءت الآية الثالثة متصدرة بالفعل(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ) والحرام هو" الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي وإمّا بشريّ، وإما بمنع قهريّ، وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسم أمره"[٦١]، فتحريم ما ذُبح على النصب هو تحريم من جهة الشرع، وعبارة (وما ذُبح على النُصب) جاءت معطوفة على الأمور المحرمة التي تتعلق بالأكل منها، فكل ما سبق ذكره محرم أكله، والعطف إشراك للمعطوفات في حكم التحريم، من هنا فما ذُبح

على النصب محرم أكله كذلك، وهذا يقتضي تحريم الفعل ذاته، لأنه من الشرك بالله سبحانه، لذلك قال تعالى: (وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) "بِحَرْفِ (عَلَى) ، وَلَمْ يَقِلْ وَمَا ذُبِحَ لِلنُّصُبِ لِأَنَّ الذَّبِيحَةَ تُقْصَدُ لِلْأَصْنَامِ وَالْجِنِّ، وَتُذْبَحُ عَلَى الْأَنْصَابِ، فَصَارَتِ الْأَنْصَابُ مِنْ شَعَائِرِ الشِّرْكِ"(٦٢).

أما الأزلام فالمقصود بها في هذا السياق(الآية رقم ٣ من سورة المائدة) هو ماتعلق بالميسر؛"لأن الشَّأْن فِي المعطف التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْمُتَعَاطِفَاتِ، فَلَا جَرَمَ أَنَّ هَذَا الْمَعْطُوفَ مِنْ نَوْعِ الْمُتَعَاطِفَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ، وَهِيَ الْمُحَرَّمُ أَكْلُهَا. فَالْمُرَادُ هُنَا النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ الَّذِي يَسْتَقْسِمُونَ عَلَيْهِ بِالْأَزْلَامِ، وَهُوَ لَحْمُ جَزُورِ الْمَيْسِرِ؛ لِأَنَّهُ حَاصِلٌ بِالْمُقَامَرَةِ، فَتَكُونُ السِّينُ وَالتَّاءُ فِي تَسْتَقْسِمُوا مَزِيدَتَيْنِ كَمَا هُمَا فِي قَوْلِهِمُ: اسْتَجَابَ وَاسْتَرَابَ. وَالْمَعْنَى: وَأَنْ تَقْسِمُوا اللَّحْمَ بِالْأَزْلَامِ"(٦٣).

ووصفت الاستقسام بالأزلام بقوله تعالى:{ذَلِكُمْ فِسْقٌ} يُقال"فَسَقَ فلان: خرج عن حجر الشّرع، وذلك من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرج عن قشره، وهو أعمّ من الكفر. والفِسْقُ يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة"(٦٤). فيبرز من خلال هذا الوصف ودلالاته الانسجام بين العناصر اللغوية وما تحيل إليه من دلالات في الواقع يعرفها العربي، ويدرك مدى قوتها وأثرها بوصفها، فهي في مقتضاها تهمة بأنه ثمة شرع وحكم أُخلَّ به. فتبرز من وراء هذه الدلالات الوظيفة المرجعية التي تربط عناصر المقال بمقامها لتجلي دلالاتها، وتكشف المقصد من ورائها.

النسيء :-

أصل النسيء في اللغة من (نسأ): يُقال: " نَسَأَ الشيءَ نَسْأً: بَاعَهُ بتأْخيرٍ، وَالِاسْمُ النَّسِيئَةُ. تَقُولُ: نَسَأْتُه البيعَ وأَنْسَأْتُه وبِعْتُه بِنُسْأَةٍ وَبِعْتُهُ بِكُلْأَةٍ وَبِعْتُهُ بِنَسِيئَةٍ أَي بأَخَرةٍ والنَّسِيءُ: شَهْرٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تُؤَخِّره فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فنَهى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، عَنْهُ"(٦٥).

والنسيء على "وزن فعيل، بمعنى التأخير، وقيل بمعنى الزيادة، وتطلقه العرب على شهر الكبيسة. وبيانه أنّهم لما أرادوا أن يقع حجهم في العاشر من ذي الحجة في زمان لا يتغيّر بحيث يكون وقت إدراك الفواكه واعتدال الهواء؛ ليسهل السفر عليهم، وذلك عند كون الشمس في حوالي الاعتدال الخريفي، قام خطيب في الموسم عند إقبال العرب إلى مكة فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال بعد الخطبة: أنا أنسئ لكم شهرا في هذه السنة أي أزيد فيها وكذلك أفعل في كل ثلاث سنين حتى يأتي حجّكم وقت اعتدال الهواء وإدراك الفواكه، ففي كلّ ست وثلاثين سنة قمرية يكبسون اثني عشر شهرا قمريا ويسمّون الشهر الزائد بالنسيء(٦٦).

وتذكر المصادر أن "أوّل من نسأ الشهور على العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمّس... فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: «اللهم إني لا أخاف ولا أعاف، ولا مردّ لما قضيت! اللهم إني أحللت شهر كذا، ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شنّ الغارات فيه وأنسأته إلى العام القابل (أي أخرت تحريمه) وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي"[٦٧].والذي يبدو من مراجعة المصادر أن من يحدد مواقيت النسيء هم "حَيٌّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، ثُمَّ مِنْ بَنِي فُقَيْمٍ، مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْقَلَمَّسُ وَاسْمُهُ حُذَيْفَةُ بْنُ عُبَيْدٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: مَالِكُ بْنُ كنانة، وكان الذي يلي النسي يظفر بالرئاسة لِتَرَيُّسِ الْعَرَبِ إِيَّاهُ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

وَمِنَّا نَاسِئُ الشَّهْرِ الْقَلَمَّسُ"[٦٨].

من هنا تبرز دلالة التقابل في دلالة النسيء في أن هذا المسلك كان في الجاهلية مبعث فخر بين العرب، من هنا ورد في الخطاب الشعري وتحديداً الفخر؛ ليقرر هذه الدلالة، ولو أن طابع الحياة في العصر الجاهلي كان يرفض النسيء أو يستهجنه، لما وظفه الشاعر في سياق يفخر به وبقومه وبمآثرهم، يقول فِي ذَلِكَ عُمَيْر بْنُ قَيْس الملقب بـ(جِذْل الطَّعان) يَفْخَرُ بالنَّسأة على الْعَرَب[٦٩].

لَقَدْ علمتْ مَعَد أَنَّ قَوْمِيكرامُ الناسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَامَا

فَأَيُّ الناسِ فَاتُونَا بوِتْرِوَأَيُّ الناسِ لَمْ نُعْلِكْ لِجَامَا

ألسْنا النَّاسئين عَلَى مَعد شهورَ الحِلِّ نجعلها حَرامًا؟

وهو حين يفخر، وتحديداً ما ذكره في البيت الأخير من المقطوعة الشعرية يعلم جيداً منزلة أن يصف قومه بين العرب بـ (الناسئين)، فهذا العنصر اللغوي أحال إلى عناصر غير لغوية تسهم في تفسير مقصده، ويمثل السياق غير اللغوي المحيط الذي يُنتج فيه الخطاب، وتتشكل فيه بُنى الخطاب اللفظي، ويمكن أن يدخل ضمن هذا السياق عنصرا الموقع والهدف، ونقصد بالموقعالإطار الزمكاني، إذ يجب أن يكون الخطاب المُرسَل ضمن حيز مكاني معين ولحظة زمانية معينة. أما عنصر الهدف فيعني الغاية المقصودة من وراء عملية التواصل،وهو هنا الفخر المدفوع بمشاعر وانفعالات داخلية، والمثير فيها الوقائع التي تحفز الشاعر نحو الفخر بقومه، ولا يخفى ما في خطاب الفخر من اعتداد واعتزاز بمآثر القبيلة فعلا وقولا، وهو في الوقت نفسه فعل ذم ونيل من المخاطب سواء كان مقصوداً بهذا الخطاب أو غير مقصود، إذ تتمثل في هذا الخطاب الوظيفة التعبيرية بكل ما تجسده من انفعالات ومشاعر المرسِل

وهنا ننوه إلى أن من الأهمية بمكان أن نميز بين الهدف الكلي العام للتداخلات الكلامية، والهدف الخاص الأكثر دقة وتحديدا لمواقف الأفعال الكلامية المتباينة المنجزة أثناء اللقاء أو الالتقاء بين المرسل، والمرسل إليه(٧٠).

النسيء في الخطاب القرآني :-

ورد النسيء في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله تعالى: { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَاما لِيُواطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ}[سورة التوبة: ٣٧]

إذ يُبرز الخطاب القرآني التقابل الفكري والخلاف العقدي، ومقتضى الآية الكريمة تكشف عن أنه ثمة سنة وشرع إلهي له مواقيته سائد عند العرب، فطاله التغيير إتباعاً للأهواء، إذ اجتمع في هذه الآية مسلك العرب في الجاهلية في الأشهر الحرم، وموقف الإسلام من هذا المسلك، الذي يخضع لطبيعة الحياة ومقتضياتها في العصر الجاهلي، فقال تعالى{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا }، لقد طبعت الجملة بطابع التوكيد من خلال مجيء الجملة بالصياغة الاسمية، ثم القصر بـ(إنَّما) وَصِيغَةُ الْقَصْرِ هذه فِي قَوْله تعالى تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ مِنْ أَثَارِ الْكُفْرِ لِلرغبةِ في الِاعْتِدَاءِ وَالْإِغَارَة، فَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إذ يَلْزَمُ كَوْنِهِ زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ أَنَّالَّذِينَ وَضَعُوهُ وَسَنوهُ لَيْسوا إِلَّا كَافِرِينَ،وَمَا هُمْ بِمُصْلِحِينَ، وَالَّذِينَ تَابَعُوهُمْ كَافِرُونَ، وَمَا هُمْ بِالمُتَّقِينَ.وَوَجْهُ كَوْنِهِ كُفْرًا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ شَرعَ لَهُمُ الْحَجَّ وَوَقَّتَهُ بِشَهْرٍ مِنَ الشُّهُورِ الْقَمَرِيَّةِ الْمَعْدُودَةِ الْمُسَمَّاةِ بِأَسْمَاءَ تُمَيِّزُهَا عَنِ الِاخْتِلَاطِ، فَلَمَّا وَضَعُوا النَّسِيءَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الشُّهُورِ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهِ، ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُخَالِفُونَ لِمَا وَقَّتَ لَهُمْ عَنْ تَعَمُّدٍ، مُثْبِتِينَ الْحِلَّ لِشَهْرٍ حَرَام، وَالْحُرْمَة لِشَهْر غَيْرِ حَرَام؛ وَفي ذَلِكَ جُرْأَةٌ عَلَى شرع اللَّهِ، وَاسْتِخْفَافٌ بِهِ، فَكَمَا جَعَلُوا لِلَّهِ سبحانه شُرَكَاءَ فِي الْإِلَهِيَّةِ، جَعَلُواأَنْفُسهِمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي التَّشْرِيعِ، يُخَالِفُونَهُ فِيمَا شَرَعَهُ؛ فَهُوَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ كَالْكُفْرِ(٧١).

فهو من العبث بالمواقيت وما فُرض فيها من أعمال، وما لا يجوز فيها، تبعاً للأهواء والمصالح،على حساب حرمة هذه المواقيت وقدسيتها، فالخضوع لها خضوع لما شرع الله، والنهج الدعوي في الإسلام يحرص إثبات شرائع الله، وكبح عملية إخضاع شريعة الله للأهواء الخاصة على حساب مصلحة الجماعة. إذ "إِنَّ حُرْمَةَ الْأَزْمَانِ وَالْبِقَاعِ إِنَّمَا تُتَلَقَّى عَنِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ هُوَ الَّذِي يَسُنُّ لَهُ نِظَامَهُ فَبِذَلِكَ تَسْتَقِرُّ حُرْمَةُ كُلِّ ذِي حُرْمَةٍ فِي نُفُوسِ جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ عَمَلٌ لِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ، فَإِذَا أُدْخِلَ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ تَغْيِيرٌ تَقَشَّعَتِ

الْحُرْمَةُ مِنَ النُّفُوسِ فَلَا يَرْضَى فَرِيقٌ بِمَا وَضَعَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْفِرَقِ، فَلِذَلِكَ كَانَ النَّسِيءُ زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَوْضَاعِ الَّتِي اصْطَلَحَ عَلَيْهَا النَّاسُ، كَمَا اصْطَلَحُوا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ"(٧٢)

من هنا يمتاز الخطاب في القرآن بكونه نصا، وخطابا إلهياً مطلقاً، وله ترتيبان ترتيب التلاوة وترتيب النزول، وموافق للنظام الذي يحكم اللغة العربية. وهو في الوقت نفسه يعدل عن معهود العرب في الكلام، ومن ثَّم فهو بناء فكري، ولغوي محكم ومتفرد. وهو خطاب ملفوظ، ونص مكتوب، تتحقق فيه المكونات التي تتشكل منها عملية التواصل وشروطها، المرسل، المرسل إليه، الخطاب ذاته(٧٣).

الخاتمة

سعينا في هذه الورقة البحثية إلى رصد ألفاظ تقابلت دلالاتها بين عصرين تباينت فيهما رؤية الإنسان إلى الأشياء والحياة، ولقد شكلت هذه الظواهر انعكاساً لحياة الانسان العربي في ذلك العصر، ولم يكن ثمة رؤية أبعد من كونها إما للهو كما في الخمر، أو بوصفها معتقداً يؤمن به ولا يمكن أن يتجاهله كما كان يحدث في الاستقسام بالأزلام، أو بوصفه أسلوباً للحياة وضمان ديمومتها، ويظهر ذلك في الميسر، والنسيء، والذي سردناه آنفاً هو جزء أصيل في الحياة العربية ما قبل الإسلام، وهي معتقدات راسخة في وعي الانسان العربي وفي لا واعيه، من هنا جاء الشعر، وهو وسيلتهم المثلى للتعبير مكنوناته، معاناته، رؤيته للحياة، هو بالمحصلة النهائية انعكاس لواقعه على المستوى النفسي والمستوى الاجتماعي.

إن التغيير الفكري والعقدي والاجتماعي والرؤية هو الذي أحدث هذا التقابل في الرؤية لهذه للألفاظ المدروسة، إذ شهدنا تقابلا في الخطاب، بين الشعر الجاهلي الذي يمثل مجموعة العقائد والأعراف والنظم الاجتماعية ذات الأبعاد الوثنية،ولعل ما جعل هذا الانقلاب مقبولاً، بل ومرحباً به هو أن منطلقاته إنسانية محضة، والذي أحدث هذا التقابل في مفهوم الألفاظ مرجعياتها التداولية والعقدية، التابعة في الجاهلية لعقيدة الوثنية، والتي ظهرت على نحو جلي الخطاب الشعري في العصر الجاهلي، في حين غدت في الإسلام تابعة للشرع الإلهي.

أما وظائف الخطاب فنجدها ماثلة في نصوص الشعر الجاهلي، ولعلأكثرها توظيفاً هي الوظيفة الانفعالية، والوظيفة الإفهامية، والوظيفة المرجعية، والوظيفة الشعرية، إذ تمثلت في كثير من النصوص الشعرية.ولقد عمد القرآن الكريم (في خطابه)على ابتكار أساليب تواصلية فعالة، حيث نجده ينوع هذه الأساليب بحسب المقام والسياق، مما يجعله يتجاوب مع النفس البشرية في أبعادها المختلفة والمتنوعة.

المصادر :-
١- تاريخ الفكر الديني الجاهلي، محمد إبراهيم الفيومي، الطبعة الرابعة، دار الفكر العربي،١٤١٥ -١٩٩٤.
٢- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسية، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤
٣- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية،دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤
٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث مكة المكرمة
٥- الخمر في الحياة الجاهلية والشعر الجاهلية، بادية حسين حيدر، دار النشر:الجامعة الامريكية ببيروت.
٦- ديوان طرفة بن العبد، المحقق: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة: الثالثة،دار الكتب العلمية، ٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
٧- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عدر، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٨- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، اعتنى به: حمدو طمّاس، الطبعة: الأولى، دار المعرفة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٩- ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة جمهورية مصر العربية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م.
١٠- السيرة النبوية، عبد الملك ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي،الطبعة: الثانية، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
١١- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبو على المرزوقي الأصفهاني، المحقق · غريد الشيخ، الناشر، دار الكتب العلمية.
١٢- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٣٦٣هـ- ١٩٤٤م.
١٣- كتاب الأشربة، ابن قتيبة الدينوري، المحقق: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق – القاهرة

١٤- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
١٥- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي التهانوي، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦
١٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود جار الله الزمخشري، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، الطبعة: الثالثة، دار الريان للتراث بالقاهرة – دار الكتاب العربي، بيروت
١٧- شرح المعلقات السبع، حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني، الناشر: دار احياء التراث العربي
١٨- لسان العرب، محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ، دار صادر – بيروت.
١٩- اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري، أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٠.
٢٠- المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل بديع يعقوب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م
٢١- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.
٢٢- المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، الطبعة: الرابعة، الناشر: دار الساقي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م
٢٣- المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة: السادسة، دار المعارف – القاهرة.
٢٤- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٥- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المحقق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م دار الجيل، بيروت.
٢٦- من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية، قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى، محمد الحاج سالم، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠١٤.

٢٧- نظرات معاصرة في القرآن الكريم، الدكتور محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي بيروت، لبنان.
٢٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهر، ١٤٢٣ هـ
الدوريات :-
- التفسير الأسطوري للشعر القديم، أحمد كمال زكي، فصول، المجلد الأول، العدد ٣ القاهرة ١٩٨١
-التقابل وبلاغته في كتابات القدماء والمحدثين، أ. عبد الله بن صفية أ. نور السادات جودي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية – العام الثاني – العدد ١١ أيلول ٢٠١٥.
-الثقافة، المعرفة والإيديولوجيا، عبد الإله بلقزيز، دار الساقي، ٢٠٢٤.
-حكم نهج البلاغة في ضوء وظائف الخطاب عند رومان جاكبسون، هادية عطية، مجلة العلوم الإنسانية – جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد:٤٩.
- الخطاب الإسلامي المعاصر ...المنهج والاليات، ضمن كتاب :الخطاب الإسلامي المعاصر: دعوة للتقويم وإعادة النظر، حليمة بوكروشة، مركز البحوث والدراسات، قطر،٢٠٠٦.
-الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة، سمير استيتيةhttps://arabic.jo
-الخطاب: المفهوم والحدود، رامي أبو شهاب https://www.laghoo.com
-الخَمر: الشغف الجاهلي والاحتكار الإسلامي. https://raseef22.net
- عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكبسون، ليلى زبان، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد الثاني – العدد (١) ١٥ مارس ٢٠١٦..
-قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى، خميس العدويhttps://www.omandaily.om
لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق والانسجام، خديجة إيكر، موقع: الرابطة المحمدية للعلماء.
-المنهج التأصيلي لحرمة الخمر في القرآن الكريم، خليل إبراهيم الموسوي، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد :٣٧، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩.

الهوامش:

١. مقاييس اللغة: ٥/٥١
٢. ينظر : لسان العرب١١/٤٥٠
٣. ينظر: الثقافة، المعرفة والإيديولوجيا، عبد الإله بلقزيز: ٣١٥.
٤. ينظر: التقابل وبلاغته في كتابات القدماء والمحدثين، أ. عبد الله بن صفية أ. نور السادات جودي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية – العام الثاني – العدد ١١ أيلول٢٠١٥: ١.
٥. "الخطاب الإسلامي المعاصر ...المنهج والاليات، ضمن كتاب :الخطاب الإسلامي المعاصر: دعوة للتقويم وإعادة النظر"، حليمة بوكروشة،مركز البحوث والدراسات، قطر، ٢٠٠٦: ص١٧١.
٦. ينظر: الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة، سمير استيتيةhttps://arabic.jo
٧. اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري، أحمد المتوكل:٥١.
٨. اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري: ٥١.
٩. الخطاب: المفهوم والحدود، رامي أبو شهاب. https://www.laghoo.com
١٠. ينظر: اللسانيات الوظيفية ٥١.
١١. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني:٢٩٨-٢٩٩.
١٢. الخمر في الحياة الجاهلية والشعر الجاهلية، بادية حسين حيدر:٥٩.
١٣. ديوان الهذليين: ١/ ٩٣.
١٤. حكم نهج البلاغة في ضوء وظائف الخطاب عند رومان جاكبسون، هادية عطية، مجلة العلوم الإنسانية – جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد:٤٩: ٧١٧
١٥. ديوانه : ١١٧-١١٩
١٦. اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري:٥٢..
١٧. ديوانه :١١٣-١١٤.
١٨. شرح ديوانه :٧٢.
١٩. اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري: ٥١.
٢٠. قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى،خميس العدوي https://www.omandaily.om
٢١. نظرات معاصرة في القرآن الكريم، الدكتور محمد حسين علي الصغير:٩٤.
٢٢. التحرير والتنوير، ابن عاشور :٢ /٣٣٨.
٢٣. التحرير والتنوير:٥/٦١.

٢٤. ينظر : المنهج التأصيلي لحرمة الخمر في القرآن الكريم، خليل إبراهيم الموسوي، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد :٣٧، (١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م) :٢٠٦ .

٢٥. شرح المعلقات السبع، الزوزني : ١٦٥.

٢٦. ينظر :نظرات معاصرة في القرآن الكريم: ٩٨-٩٩

٢٧. الخَمر: الشغف الجاهلي والاحتكار الإسلامي. https://raseef22.net

٢٨. لسان العرب:٥/ ٢٩٥.

٢٩. المفصل في تاريخ العرب، جواد علي:٩/ ١٢٨.

٣٠. شرح حماسة أبي تمام: ١٣٢٨/٣. وينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية، قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى، محمد الحاج سالم :٥٦٧-٥٦٨.

٣١. المفضليات: ٤٣٨، وينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية، قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى:٥٧٣.

٣٢. التفسير الأسطوري للشعر القديم"، أحمد كمال زكي، فصول، المجلد الأول، العدد ٣ القاهرة ١٩٨١، ص:١٦٠، وينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية:٣٨

٣٣. من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية:٩٨.

٣٤. المفضليات: ٢٣٢، وينظر:من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية:٩٨.

٣٥. ديوان الهذليين. القسم الأول :٦. وينظر: لسان العرب :١/ ٤٠٦.

٣٦. لسان العرب: ٤٢٥/١.

٣٧. من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية، قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى:١٩١.

٣٨. كتاب الأشربة،ابن قتيبة الدينوري: ٨٠.وينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية، قراءة إناسية في نشأة الدولة الإسلامية الأولى: ٢٩٥.

٣٩. ينظر: قراءة في كتاب، أحمد القاسمي https://arabi21.com

٤٠. المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي:٢٩-٣٠.

٤١. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٥٧.

٤٢. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٥٨

٤٣. ينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية: ١٣١.

٤٤. الكشاف، الزمخشري:٦٧٥/١.

٤٥. ينظر: من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية: ٢٤.

٤٦. المفردات في غريب القرآن : ٨٠٧.

٤٧. الجامع لأحكام القرآن:٥٧/٦

٤٨. ديوانه: ٧٤.

٤٩. ديوانه:٢٥

٥٠. ديوانه: ٩٦. وينظر: الارتحال في الشعر الجاهلي - دراسة نقدية، وفاء سليمان علي العليان، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٣٢-هـ - ٢٠١١م.

٥١.ينظر: التحرير والتنوير : ٦/٩٣-٩٤.

٥٢.المفردات في غريب القرآن:٣٤٢.

٥٣.ينظر: لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق والانسجام، خديجة إيكر، موقع: الرابطة المحمدية للعلماء

٥٤.العين:٧/٣٧٠.

٥٥.البيت بلا نسبة ، ينظر: العين:٧/٣٧٠، المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل بديع يعقوب:١/٢٦٣.

٥٦.جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري:٩/٥١٠.

٥٧.ديوانه :٧٢.

٥٨.تاريخ الفكر الديني الجاهلي، محمد إبراهيم الفيومي:١/٣٥٠-٣٥١.

٥٩.المصدر نفسه:٥٧.

٦٠.من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية:٩٥.

٦١.المفردات في غريب القرآن : ٢٢٩.

٦٢.التحرير والتنوير٦: ٩٥.

٦٣.التحرير والتنوير٦: ٩٦.

٦٤.المفردات في غريب القرآن:٦٣٦.

٦٥.لسان العرب:١/ ١٦٧.

٦٦.ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي:٢/١٦٩٤.

٦٧.نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري: ١/ ١٦٦.

٦٨.الجامع لأحكام القرآن:٨/١٣٨.

٦٩.السيرة النبوية، عبد الملك ابن هشام: ١/٣٩.

٧٠.ينظر: عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكبسون، ليلى زبان، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد الثاني – العدد (١) ١٥ مارس ٢٠١٦: ٩٥.

٧١.ينظر : التحرير والتنوير: ١٠/١٩١.

٧٢.المصدر السابق: ١٠/١٩٥.

٧٣.ينظر: لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق والانسجام. موقع : الرابطة المحمدية للعلماء.